الفصل السابع

لا علاقة بين إمامة إبراهيم عليه السلام ونظرية الإمامة عند الشيعة الإثني عشرية

حاولت أن أجد صلة بين الآية ١٢٤ من سورة البقرة، وبقية الآيات التي يستشهد بها علماء الشيعة على صحة نظرية الإمامة، وبين اعتبار إمامة سيدنا علي ﷺ من أعظم أركان الإيمان وشرط قبول الإسلام فلم أجد.

موضوعان لا صلة تجمعهما أبداً.

مركز الأبحاث العقائدية يورد هذه الآية وآيات أخرى، للاستدلال بها على صحة نظرية الإمامة. ويقول: "قال تعالى مخاطباً إبراهيم بعد نبوته : ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. (البقرة: ١٢٤)، وقال في (سورة الزخرف: ٢٨) وهو يتحدث عن ابراهيم ﷺ: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، وقال تعالى في (سورة السجدة ٢٤): ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟

بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾، وقال تعالى في (سورة الأنبياء ٧٣) : ﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَـٰبِدِينَ ﴾.

إلى هنا عرفنا أن الإمامة جزء من شرع النبي الاكرم ﷺ، جاء بها الوحي الكريم كما جاء بالصوم والصلاة والزكاة، وأوجب علينا الإيمان بهما، وكذلك أوجب علينا الإيمان بالإمامة، لأنها من عند الله وجزء من وحيه". (انتهى النقل من مركز الأبحاث العقائدية. الرابط للطباعة في شبكة الانترنت:

(http://www.aqaed.com/faq/print.php?sid=75&qid=1452

هذا الاستدلال لا يستقيم بالعقل ولا بالمنطق.

الآية ١٢٤ من سورة البقرة جاءت في بيان وجه من وجوه فضل سيدنا إبراهيم عليه السلام ومكانته الرفيعة عند ربه عز وجل، ولا صلة لها بنظرية الإمامة مطلقا، ولا يمكن لعاقل أن يبني عليها حكماً بأن إدارة شؤون المسلمين بعد وفاة النبي ﷺ تتطلب وجود اثني عشر إماماً معصوماً، آخرهم حي منذ أكثر من ألف عام وغائب عن الناس في آن واحد.

إبراهيم عليه السلام إمام وقدوة

سيدنا إبراهيم إمام في التوحيد والالتزام بأوامر الله ونواهيه، وهو بذلك قدوة وإمام لكل إنسان صالح يسعى للفوز بمرضاة الله تعالى وجنته.

في سورة القصص: بنو إسرائيل أئمة

بنو إسرائيل الذين آمنوا بسيدنا موسى عليه السلام، ونصرهم الله تعالى على فرعون وجنده، ذكروا في الآية الخامسة من سورة القصص: "وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ". ولا يمكن لعاقل أن يقرأ خبر هذه الإمامة التي منحها الله لبني إسرائيل هنا، وهي بمعنى الحكم وولاية الأمر من الناحية السياسية، ويبني عليها نظرية للإمامة في الإسلام، ويجعلها أصلا من أصول دين محمد ﷺ وشرطا من شروط دخول الجنة.

وأعود للآية ١٢٤ من سورة البقرة وأقول: لا يفهم من هذه الآية أبدا ما قاله السيد كمال الحيدري مثلا، في الحوار الذي أجراه معه جواد علي كسار والمنشور في كتاب "بحث حول الإمامة"، من أن "الإمامة جزء في نظام التكوين الإلهي لهداية البشر تماما كما هي النبوة". (بيروت: دار الكاتب العربي. ٢٠٠٢. ص ١٠٦)

ولا يبنى عليها ما قاله محمد الحسين آل كاشف الغطاء من أنها "صريحة في لزوم العصمة في الإمام لمن تدبرها جيدا وأن يكون أفضل أهل زمانه في كل فضيلة وأعلمهم بكل علم". (أصل الشيعة وأصولها. بيروت. مؤسسة الأعلمي للمطبوعات. ١٩٩٣م. الطبعة الرابعة. ص٦٢)

يوجد أئمة للكفر والضلال أيضا

ألا ترى أن القرآن الكريم يتحدث أيضا عن أئمة الكفر في عهد سيدنا محمد ﷺ. كما يتحدث عن أئمة الكفر في عهد سيدنا موسى عليه السلام، ويضرب مثلا بفرعون وهامان وجنودهما. في هؤلاء نزل قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ (القصص: ٤١)

فهل نبني على هذه الإمامة الفرعونية حكما مناقضا لحكم السيد الحيدري المذكور قبل قليل، أو لحكم كاشف الغطاء؟

وهل ادعى حاكم على وجه الأرض ما قال به كاشف الغطاء من أنه "أفضل أهل زمانه وأعلمهم بكل علم"؟ حتى الأنبياء عليهم السلام ضربوا المثل في التواضع، وإمام التواضع خاتمهم محمد ﷺ.

أما الحكام من دونهم فما أعرف منهم من يدعي أنه "أفضل أهل زمانه وأعلمهم بكل علم". وكيف يدعي مسلم ذلك والله تعالى يقول: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾. (النجم: ٣٢)

من هو الحاكم الذي يزعم أنه

أفضل أهل زمانه وأعلمهم بكل شيء؟

ثم ها هو تاريخ الشيعة والسنة بين أيدينا منذ صدر الإسلام. وهذا تاريخ الأوروبيين والآسياويين والأفارقة والأمريكيين وغيرهم: هل

من أمة اشترطت لحكمها أن يكون الحاكم "أفضل أهل زمانه وأعلمهم بكل علم"؟

أين في الدنيا، قديماً وحديثاً، وفي كل الحضارات الإنسانية، من زعم أنه "أعلم الناس بكل علم"؟

إن رسول الله ﷺ نفسه لم يزعم ذلك لنفسه، واستشار الخبراء في أمور كثيرة، وحث على المشاورة.

فكيف يزعم ذلك من دونه؟

فرعون وحده، إمام أهل النار، قال لقومه: ﴿ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾. (غافر: ٢٩)

فكيف إذن يشترط الإخوة علماء الشيعة أمراً لم يشترطه الإسلام في أي نص واضح صريح ويجعلون منه شرط دخول الجنة؟

أمر عجيب ومحير حقاً.

إذا كانت الإمامة كما يقول علماء الشيعة الإمامية "ترتقي أكثر لأن تكون من أساسيات الدين كالتوحيد والنبوة ، فكما أن من لم يؤمن بالله أو النبي ﷺ لا يكون مؤمناً كذلك من لا يؤمن بالإمام"، فإنه لا يمكن الاستدلال لها بهذا الاستدلال المخالف للعقل والمنطق.

الرسول عليه الصلاة والسلام

هو الأسوة الحسنة للمؤمنين في كل عصر

فليتأمل إخوتي الشيعة والسنة، وكل باحث عن الحق في قول الله تعالى في خطاب مباشر للمؤمنين برسالة سيدنا محمد ﷺ:

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾. (الأحزاب: ٢١)

أين الأئمة هنا؟ لو كانوا ركنا من أركان الدين كما يقول علماء الشيعة لكانوا الأسوة مع رسول الله ﷺ، أو من بعده على الأقل.

وإلا، فما الحكمة في أن يغفل القرآن الكريم ذكرهم، إذا كان الإيمان بهم شرط دخول الجنة؟

وانظروا إلى قول الله تعالى: ﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ

مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾. (الأعراف: ١٥٦-١٥٨)

وأتساءل مرة أخرى: أين الأئمة هنا؟ لو كانوا ركنا من أركان الدين كما يقول علماء الشيعة لطلب الله تعالى من عباده، في كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، أن يتبعوا الأئمة المعصومين من بعد نبيه وأن يؤمنوا بهم من بعد الإيمان بالله ورسوله النبي الأمي.

وإلا - كما تساءلت قبل قليل - فما الحكمة في أن يغفل القرآن الكريم ذكرهم، إذا كان الإيمان بهم شرط دخول الجنة؟

أكتفي بهذا القدر في مناقشة أقوال علماء الشيعة في الاستدلال بالآية ١٢٤ من سورة البقرة، وأذكر القارئ الكريم بما سبق أن بينته في الفصل السابق، من أن نظرية الإمامة تخالف ما جاء في الآية ٥٩ من سورة النساء، التي تثبت أن أولي الأمر هم من المؤمنين، وأنهم غير معصومين، وأن المرجعية عند الخلاف بين المؤمنين هي الكتاب والسنة. يقول عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾. (النساء: ٥٩)

كما أذكر القارئ الكريم بأن الآية ٤٨ من سورة النساء تدحض

أقوال علماء الشيعة بأن إنكار الإمامة سبب للخلود في النار، لأن الآية تقول بكلمات لا غموض فيها على الإطلاق: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾. (النساء: ٤٨)

قول ابن كثير في إمامة إبراهيم عليه السلام

ولمن يريد زيادة فائدة، أورد هنا فقرات من تفسير الإمام الحافظ ابن كثير للآية ١٢٤ من سورة البقرة التي نصها ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

يذكر ابن كثير أن الله تعالى نبّه على "شَرَف إِبْرَاهِيم خَلِيله عَلَيْهِ السَّلَام وَأَنَّ اللَّه تَعَالَى جَعَلَهُ إِمَامًا لِلنَّاسِ يُقْتَدَى بِهِ فِي التَّوْحِيد حِين قَامَ بِمَا كَلَّفَهُ اللَّه تَعَالَى بِهِ مِنْ الْأَوَامِر وَالنَّوَاهِي"، ثم أمر نبينا محمداً عليه الصلاة والسلام بأن يبين للمشركين وأهل الكتاب بأنه على ملة إبراهيم حقيقة، على نهج الحق والصراط المستقيم، هو ومن معه من المؤمنين.

ويضيف ابن كثير: "وَلِهَذَا قَالَ ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ﴾ أَيْ وَاذْكُرْ يَا مُحَمَّد لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْل الْكِتَابَيْنِ الَّذِينَ يَنْتَحِلُونَ مِلَّة إِبْرَاهِيم وَلَيْسُوا عليها وَإِنَّمَا الَّذِي هُوَ عَلَيْهَا مُسْتَقِيم فَأَنْتَ وَالَّذِينَ مَعَك مِنْ الْمُؤْمِنِينَ.

اُذْكُرْ لِهَؤُلَاءِ اِبْتِلَاء اللَّه إِبْرَاهِيم أَيْ اِخْتِبَاره لَهُ بِمَا كَلَّفَهُ بِهِ مِنْ

الْأَوَامِـر وَالنَّوَاهِي " فَأَتَمَهُنَّ " أَيْ قَامَ بِهِنَّ كُلّهنَّ كَمَا قَالَ تَعَالَى " وَإِبْرَاهِيم الَّذِي وَفَّى " أَيْ وَفَّى جَمِيع مَا شَرَعَ لَهُ فَعَمِلَ بِهِ صَلَوَاتُ اللَّه عَلَيْهِ. وَقَالَ تَعَالَى : " إِنَّ إِبْرَاهِيم كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنْ الْمُشْرِكِينَ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاط مُسْتَقِيم وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَة وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَة لَمِنْ الصَّالِحِينَ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْك أَنْ اتَّبِعْ مِلَّة إِبْرَاهِيم حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ".

وَقَالَ تَعَالَى " قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاط مُسْتَقِيم دِينًا قِيَمًا مِلَّة إِبْرَاهِيم حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ" وَقَالَ تَعَالَى "مَا كَانَ إِبْرَاهِيم يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ إِنَّ أَوْلَى النَّاس بِإِبْرَاهِيم لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاَللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ".

وَقَوْله تَعَالَى " بِكَلِمَات " أَيْ بِشَرَائِع وَأَوَامِـر وَنَوَاهٍ فَإِنَّ الْكَلِمَات تُطْلَقُ وَيُرَاد بِهَا الْكَلِمَات الْقَدَرِيَّة كَقَوْلِه تَعَالَى عَنْ مَرْيَم عَلَيْهَا السَّلَام " وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَات رَبّهَا وَكُتُبِه وَكَانَتْ مِنْ الْقَانِتِينَ " وَتُطْلَق وَيُرَاد بِهَا الشَّرْعِيَّة كَقَوْلِه تَعَالَى " وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّك صِدْقًا وَعَدْلًا " أَيْ كَلِمَاته الشَّرْعِيَّة وَهِيَ إِمَّا خَبَرُ صِدْق وَإِمَّا طَلَبُ عَدْل إِنْ كَانَ أَمْرًا أَوْ نَهْيًا وَمِنْ ذَلِكَ هَذِه الْآيَة الْكَرِيمَة "وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَات فَأَتَمَهُنَّ" أَيْ قَامَ بِهِنَّ قَالَ " إِنِّي جَاعِلُك لِلنَّاس إِمَامًا " أَيْ جَزَاء عَلَى مَا فَعَلَ كَمَا قَامَ بِالْأَوَامِر وَتَرَكَ الزَّوَاجِر جَعَلَهُ اللَّه لِلنَّاس قُدْوَة وَإِمَامًا يُقْتَدَى بِهِ وَيُحْتَذَى حَذْوه".

ويضيف ابن كثير:

وَقَوْله قَالَ " وَمِنْ ذُرِّيَّتِي " قَالَ " لَا يَنَال عَهْدِي الظَّالِمِينَ" لَمَّا جَعَلَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ إِمَامًا سَأَلَ اللَّه أَنْ تَكُون الْأَئِمَّة مِنْ بَعْده مِنْ ذُرِّيَّته فَأُجِيب إِلَى ذَلِكَ وَأُخْبِرَ أَنَّهُ سَيَكُونُ مِنْ ذُرِّيَّته ظَالِمُونَ وَأَنَّهُ لَا يَنَالهُمْ عَهْد اللَّه وَلَا يَكُونُونَ أَئِمَّة فَلَا يُقْتَدَى بِهِمْ وَالدَّلِيل عَلَى أَنَّهُ أُجِيبَ إِلَى طُلْبَته قَوْله تَعَالَى فِي سُورَة الْعَنْكَبُوت" وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّته النُّبُوَّة وَالْكِتَاب " فَكُلّ نَبِيٍّ أَرْسَلَهُ اللَّه وَكُلّ كِتَاب أَنْزَلَهُ اللَّه بَعْد إِبْرَاهِيم فَفِي ذُرِّيَّته صَلَوَات اللَّه وَسَلَامه عَلَيْهِ".

وبقيت أمور أخرى تخص الإمامة في القرآن الكريم نتطرق إليها في الفصل المقبل إن شاء الله تعالى.